المخطوطات العربية في المملكة المغربية

بقلم: الدكتور عبد الله الشريف
أستاذ مشارك ـ كلية التربية قسم المكتبات بجامعة الفاتح

يرجع تاريخ المكتبات بالمغرب إلى الفتوحات الإسلامية حيث جرت العادة في ذلك الوقت أن تحفظ المساجد بعد بنائها أعداداً من نسخ القرآن وكتب التفسير والأحاديث كما جرت العادة أن تعقد حلقات التدريس حول هذه الكتب الشيء الذي جعل من المساجد الكبيرة أماكن للتعليم وتحول بعضها فيما بعد إلى جامعات كما حدث بالنسبة لجامع القرويين. وكانت هناك عدة مكتبات أخرى احتوت على أعداد كبيرة من الكتب أتيح الاطلاع عليها للعلماء والطلاب على حد السواء. وذكر المؤرخون أنه إلى جانب الخزانة الكبرى التي يمكن تسميتها بالخزانة المركزية لجامعة القرويين كانت هناك زهاء ثلاث وثلاثين خزانة فرعية. كما أن هناك مكتبات ملحقة بالمدارس كمدرسة ابن يوسف بمراكش ومدرسة للا عودة بمكناس وغيرها كما أن هناك مكتبات ملحقة بالزوايا والمساجد. هذا بالإضافة إلى المكتبات الخاصة(١). وقد ساعد على ازدهار المكتبات الحركة الثقافية التي عمت المغرب خاصة في عهد الدولتين المرينية والسعدية حيث كثر عدد المدارس وانتشر التعليم بالإضافة إلى انتشار وسائل الكتابة وبالخصوص الورق الذي كان يصنع بالمغرب. وتحدثنا النصوص التاريخية عن سوق الكتاب التي نشطت بجانب الكتبية بمراكش وعى أطراف جامع القرويين بفاس. ولقد عدد ليون الأفريقي متاجر الكتب في عهد الوطاسيين فبلغت الثلاثين. وتوجد الآن بالمغرب مكتبات تهتم بحفظ الوثائق والمخطوطات وهي تنقسم إلى مكتبات قديمة ومكتبات حديثة فالمكتبات القديمة توجد في المساجد والزوايا وهي أوقاف إسلامية بحيث لا يمكن بيعها وإنما يقتصر على الاستعانة بها والمحافظة عليها للأجيال المتعاقبة(٢) وهي كثيرة في المغرب مثل :

- مكتبة جامع القرويين.
- مكتبة الجامع الكبير بتازة.
- مكتبة الجامع الكبير بمكناس
- مكتبة الجامع الكبير بوزان.
- مكتبة ابن يوسف بمراكش.
- مكتبة المعهد الإسلامي بتارودانت.
- مكتبة الزاوية الناصرية بتامكروت.
- مكتبة الزاوية الحمزاوية بآيت عباس.
- مكتبة تاتغملت.
- مكتبة بزو.

كما توجد بالمغرب مكتبات خاصة مثل :

- مكتبات القصور الملكية.

ـ مكتبات الأفراد من العلماء والباحثين.

أما المكتبات الحديثة بالمغرب التي تحتوي على الوثائق والمخطوطات فأهمها:

- الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط.
- الخزانة العامة للكتب والمستندات بتطوان[1].
- خزانة جامعة القرويين.
- الخزانة الملكية بالرباط.

مخطوطات الخزانة العامة للكتب والوثائق:

تم تأسيس الخزانة العامة للكتب والوثائق سنة 1921 وتتبع الخزانة العامة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية وتعتبر الخزانة بمثابة المكتبة الوطنية بناء على القانون الصادر في أول نوفمبر 1926 والذي يقضي بمنح الخزانة العامة الكيان المعنوي والاستقلال المالي. لتمكينها من حفظ الوثائق المقتناة عن طريق الإيداع القانوني وتبلغ محتويات الخزانة العامة (630,000) مجلد في مختلف فروع المعرفة كما تحتوي الخزانة على مجموعات من الوثائق التاريخية وقصاصات الصحف والوسائل السمعية والبصرية والمخطوطات ويبلغ عدد المخطوطات العربية في قسم المخطوطات بالخزانة العامة حوالي (10,000) عشرة آلاف[4] مخطوط وتتألف مجموعات المخطوطات من المصادر التالية:

1 ـ خزانة زاوية الشيخ ماء العينين بفاس.
2 ـ خزانة قصر مولاي عبد الحفيظ بطنجة.
3 ـ مصلحة الأملاك المخزنية للخزانة العامة.
4 ـ خزانة ابن عاشر الكتبي.
5 ـ مخطوطات مكتبات الأوقاف.
6 ـ خزانة الزاوية الناصرية بتامكروت.
7 ـ المخطوطات التي قام بإهدائها الأفراد.
9 ـ مكتبة المسيو لريش قنصل فرنسا أثناء فترة الحماية الفرنسية للمغرب ولقد اهتم قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط بتنمية عدد مخطوطاته وخصوصاً التاريخية منها وعلى الأخص المتعلقة بتاريخ المغرب ومن أهم أعمال قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط قيامه بتصوير كل ما يستطيع التوصل إليه من نوادر مخطوطات الأوقاف ومخطوطات المكتبات الخصوصية وحتى بعض المخطوطات الموجودة خارج المغرب وتجاوز أشرطة المخطوطات في قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط حوالي (2000) ألفي مخطوط[5].

فهارس المخطوطات:

1 ـ في سنة 1921 قام الأستاذ ليفي بروفنسال بإعداد فهرس شامل للمخطوطات المسجلة في دفتر الخزانة العامة حيث اشتمل الفهرس على (531) مخطوطاً ونشر من ضمن مطبوعات معهد الأبحاث العليا المغربية بباريس.

2 ـ في سنة 1931 نشرت مجلة هيريس ضمن الجزء الثاني عشر فهرساً موجزاً للمخطوطات التي دخلت المكتبة ما بين سنتي 1929 - 1930 وقام بإعداد الفهرس كل من الأستاذ (بلاشير والدكتور رونو).

3 ـ فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة القسم الثاني (1931 - 1953) الجزء الأول اعتنى بإعداده: ي. س. علوش وعبدالله الرجراجي ونشر من ضمن منشورات معهد الأبحاث العليا المغربيَّة[6].

مخطوطات الخزانة الملكية بالرباط:

تأسست الخزانة الملكية في عهد السلطان محمد الخامس ومن قبله والده السلطان المولى يوسف. وفي عهد الحسن الثاني أضيفت لها مجموعة ضخمة من مخطوطات الخزائن الملكية بفاس ومكناس ومراكش كما تم شراء الكثير من المخطوطات من سائر المناطق المغربية. وحتى نهاية 1975 تم تسجيل أكثر من 11088 مخطوطاً زيادة على ذلك أن المكتبة تحتوي على آلاف الوثائق والمستندات التاريخية ومنذ سنة 1962 بدأ العمل في تنظيمها وإعداد فهارس لها[7].

فهارس مخطوطات الخزانة الملكية:

1 ـ عنان (محمد عبدالله)

فهارس الخزانة الملكية: فهرسة قسم التاريخ وكتب الرحلات، الرباط الخزانة الملكية 1980 (490 ص).

المجلد الأول من سلسلة فهارس الخزانة الملكية يضم الفهرس 468 مخطوطاً مقسمه كما يلي:

التاريخ: 447 عنواناً.

الرحلات: 21 عنواناً.

2 ـ الخطابي ـ محمد العربي.

فهارس الخزانة الملكية: الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات. الخزانة الملكية 1982 (256 ص)

المجلد الثاني من سلسلة فهارس الخزانة الملكية يستعرض الفهرس 151 مخطوطاً في العلوم الآتية: الطب والصيدلة والأغذية: 132 عنوانا. البيطرة والحيوان والفلاحة والنبات: 19 عنواناً[٥].

مخطوطات خزانة تطوان:

تعتبر مدينة تطوان من المدن المغربية التي لها تاريخ علمي على مر العصور ولقد أنجبت هذه المدينة الكثير من العلماء والأدباء كما أن مساجدها كانت تحتوي على الكثير من المخطوطات في مختلف فروع المعرفة.

ولقد ضاع الكثير من المخطوطات أثناء الحرب الأسبانية المغربية (1272 - 1360) كما تم حرق الكثير من المكتبات العامة والخاصة بعد إعلان الحماية سنة 1912 وفي فترات الحروب والحماية نهبت أسبانيا وفرنسا كل ما وجدته من نفائس المخطوطات والوثائق. ودليل على ذلك أن معظم المخطوطات العربية الموجودة بالمكتبة الأهلية بمدريد ومكتبة الأسكوريال والمكتبة الوطنية بفرنسا من أصل مغربي وهي إما كانت ملكاً لأهل تطوان أو الرباط أو أي مدينة أخرى. كما أن معظمها لمؤلفين مغاربة أو أنها من المخطوطات التي نسخت بالمغرب. ومدينة تطوان من المدن المغربية التي عانت من سرقة وضياع مخطوطاتها. والمكتبة الوحيدة التي نجت من الضياع والسرقة هي مكتبة المسجد الأعظم في تطوان وتعتبر هذه المكتبة غنية بالمخطوطات المتعلقة بالقرآن وعلومه ولقد فقد العديد منها بسبب التداول من جهة ومن جهة أخرى بسبب نقلها إلى مدرسة (لوقش) ثم أخيراً نقلها إلى المعهد الديني العالي[٥].

وفي سنة 1939 تأسست خزانة تطوان وتتبع الخزانة من الناحية الإدارية وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية وبناء على ما ورد في فهرس المكتبات ومراكز التوثيق بالمغرب لسنة 1974 وجد أن خزانة تطوان يوجد بها المجموعات الآتية من أوعية المعرفة:

يوجد بها 36630 كتاباً.

يوجد بها 25600 وثيقة.

يوجد بها 1008 نشرة دورية.

يوجد بها 4000 قصاصة من الصحف.

يوجد بها 1200 مخطاط.

يوجد بها 544 خريطة.

يوجد بها 33 فيلماً.

يوجد بها 35096 نسخة ضوئية.

في سنة 1937 تم إنشاء مكتبة فرعية تتبع المكتبة العامة بتطوان وهي مكتبة محمد مولاي الحسن وهذه المكتبة تقدم خدماتها للباحثين والدارسين وتبلغ محتويات المكتبة حوالي 5000 مجلد كما تحتوي على (45) مخطوطاً، 344 صورة شفافة. وتعتبر الخزانة العامة بتطوان ومكتبتها الفرعية من أهم المكتبات في المملكة المغربية وذلك لكثرة المصادر وتنوعها بمختلف اللغات زيادة على ذلك الوثائق التاريخية المتعلقة بتاريخ المغرب وتاريخ شمال أفريقيا.

فهرس المخطوطات بخزانة تطوان:

ساهم قسم المخطوطات والوثائق بالخزانة العامة بتطوان مساهمة فعالة في خدمة الباحثين وطلاب الدراسات العليا من داخل المملكة المغربية وخارجها وتسهيلاً لتوفير الوقت على الباحثين قام كل من الأستاذ المهدي الدليرو، ومحمد بوجنزة بإعداد فهرس متكامل بالمخطوطات وصدر إلى حد الآن جزءان.

الجزء الأول:

يشتمل الجزء الأول على 254 صفحة وصدر سنة 1981 ويحتوي هذا الجزء على 278 مخطوطاً في القرآن وعلومه وهي (مصاحف - تجويد - قراءات - تفسير)[١١].

الجزء الثاني:

صدر هذا الجزء منه 1984 ويحتوي هذا الجزء على 263 مخطوطاً في مصطلح الحديث - الحديث - السيرة النبوية ويشتمل كل من الجزء الأول والثاني على فهرس لعناوين المخطوطات - وأسماء المؤلفين، وفهرس النساخ وفهرس للمصادر[١٢].

فهرس الوثائق التاريخية:

تحتوي الخزانة العامة بتطوان على الكثير من المستندات والوثائق التاريخية المتعلقة بتاريخ المغرب وشمال أفريقيا على مر العصور. وفي سنة 1970 نشرت الخزانة العامة فهرس الوثائق التاريخية وقام بإعداد هذا الفهرس الأستاذ المهدي الدليرو مدير المكتبة والأستاذ محمد الفازي الرويقي رئيس قسم الوثائق. واشتمل الفهرس على (983) وثيقة تاريخية تغطي الجوانب التاريخية لعصر مولاي الحسن الأول (1291 - 1300) (1874 - 1883 م).

وربت وثائق الفهرس حسب التسلسل الزمني كما اشتمل الفهرس على فهارس للأشخاص والأماكن والدول وفهرس للمصطلحات والألفاظ المستخدمة في الوثائق[13].

مخطوطات جامعة القرويين :

منذ القدم كان للعرب والمسلمين دور فعال في نشأة الجامعات وهم أول من أدرك الدور العلمي للجامعات في تعليم الفرد وفي تربيته وفي الإسهام في زيادة المعرفة البشرية وأن هناك حقيقة لا جدال فيها أن مراكز التعليم العالي الإسلامية كانت تشتغل أكثر من قرن قبل تأسيس أوائل هذه المراكز في أوروبا فقد تأسست جامعة القرويين عام(859) وهي أول جامعة في العالم أما جامعة الأزهر فقد تأسست عام (972 م) وجامعة قرطبة في النصف الأول من القرن العاشر والجامعة المستنصرية في القرن الثالث عشر الميلادي ومن المؤكد أن جامعة بولونيا لم تؤسس إلا في سنة (1158 م) وجامعة السوربون إلا عام (1200 م) وأن الجامعات الأوروبية اتبعت نفس النظم المتبعة في الجامعات العربية وعن طريق الأندلس وجنوب أوروبا انتقلت الحضارة العلمية العربية إلى أوروبا[14]. ومنذ تأسيس جامعة القرويين إلى الوقت الحاضر أدت الجامعة دوراً مهماً في الحفاظ على الإسلام وعلى اللغة العربية وكذلك في الحفاظ على تاريخ المغرب وتاريخ الأمة العربية والإسلامية. وتميزت جامعة القرويين خلال مراحل تطورها بطابع معين هو طابع مقاومتها للاستعمار كما أن تاريخ جامعة القرويين التعليمي ساهم مساهمة فعالة في تطور النظم التعليمية سواء داخل الوطن العربي وخارجه وانعكس هذا التطور على المناهج التعليمية، ووسائل التحصيل ونظم الإجازات والنظم الإدارية المتبعة في الجامعات. ولقد حافظت جامعة القرويين على التراث العربي على مر العصور وتمثل ذلك في المؤلفات التي تم تأليفها ونسخها من قبل العلماء والطلاب، وفي المكتبات التي كانت تحتوي على الكثير من المخطوطات والوثائق والمراجع في مختلف فروع المعرفة[15] وتحتوي خزانة جامعة القرويين الآن على (30,000) مجلد وعلى 10,000 مخطوط و 399 دورية بالرغم من أن خزانة القرويين مرت بعدة تطورات بعضها إيجابي والبعض الآخر سلبي لكن إلى حد الآن ما زالت الخزانة تحتفظ بعدد كبير من أهم نوادر المخطوطات في مختلف المجالات العلمية[16].

والخصائص العامة لهذه المخطوطات هي :

1 ـ المخطوطات متعددة الأحجام والأشكال والخطوط.

2 ـ بعض المخطوطات تعتبر مخطوطات نادرة.

3 ـ المخطوطات مدونة بخط أندلسي، ، أو مشرقي.

4 ـ مخطوطات التفسير مكتوبة بخطوط متقنة واشتملت الهوامش على تعليقات وتصحيحات.

6 ـ المصاحف متعددة الأشكال والأحجام بعضها مكتوب على رق الغزال والبعض على الكاغد.

7 ـ توجد نسبة كبيرة من المخطوطات منسوبة إذ تم نسخ الكثير من المخطوطات بواسطة العلماء والطلاب في مختلف الفترات التاريخية التي مرت على المغرب.

8 ـ الموضوعات التي تتناولها المخطوطات هي في الغالب (التفسير ـ الفقه ـ الحديث ـ النصوص ـ النحو ـ اللغة ـ التاريخ والأدب والطب والحساب.

9 ـ المخطوطات المترجمة أكثرها مخطوطات عربت في العهد العباسي في الطب والفلسفة والرياضيات.

10 ـ بجانب المخطوطات المنسوخة يوجد عدد كبير من المخطوطات مكتوبة بخط مؤلفيها[17].

الهوامش :

(1) نزهة ابن الخياط، العبدية باشر، نظرة على الأوضاع الراهنة للمكتبات في المملكة المغربية. المجلة العربية للمعلومات. مج5 ، ع1 ، نوفمبر، 1984 م. ص46 - 47 .

(2) نفس المصدر، ص 47 .

(3) إبراهيم الكتاني. طبيعة دور المحفوظات في المغرب وعلاقتها بدراسة التاريخ المغربي - مجلة البحوث العلمية، ع3 ، 1970 . ص. ص 21 - 22 .

(4) دليل المكتبات في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة التوثيق ، 1981 ص 197 .

(5) نزهة ابن الخياط، العبدية باشر. نظرة على الأوضاع الراهنة للمكتبات في المملكة المغربية. ص25 - 26 .

(6) ي. س. علوش. مخطوطات المكتبة العامة بر باط الفتح - مجلة معهد المخطوطات العربية. مج 1 ، الجزء الأول، مايو1955 ص54 - 55 .

(7) محمد المثوني. عن الخزانات الملكية بالمغرب الاعلامي، ع2 ، س1 ، أبريل1982 ص135 - 187 .

(8) فهارس الخزانة الملكية الإعلامية. ع2 ، س1 ، أبريل1982 ص199 - 204 .

(9) عبد الله كنون. المخطوطات العربية في تطوان. مجلة معهد المخطوطات العربية مج 1 ، الجزء الثاني نوفمبر1955 ، ص170 - 172 .

(10) فهرس المكتبات ومراكز التوثيق بالمغرب. المركز الوطني للتوثيق، 1974 ، ص152 - 153 .

(11) المهدي الدليرو ، ومحمد بوخبزة. فهرس مخطوطات خزانة تطوان : الجزء الأول - وزارة الشؤون الثقافية، 1981 261 صفحة.

(12) المهدي الدليرو ، محمد بو خبزة. فهرس مخطوطات خزانة تطوان : الجزء الثاني وزارة الشؤون الثقافية.

(13) المهدي الدليرو، محمد الغازي الرويفي فهرس الوثائق التاريخية. مطبعة المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان، 1975 ،333 صفحة.

(14) عبدالله الشريف. في مفهوم البحث العلمي والبحث الأكاديمي. المجلة المغربية للتوثيق. ع2 - 1985 ص86 - 87 .

(15) أحمد الحفناوي. جامعة القرويين في المغرب. مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، س3 ، ع3 ، 1398 ص174 - 178 .

(16) عبد الرفيع الدبوري. طارق مفتي. زيارة لخزانة القرويين - الأعلامي : ع2 ، س1 أبريل1982 ، ص181 - 187 .

(17) عبد الهادي التازي. جامع القرويين : المجلد الثاني. بيروت : دار الكتاب اللبناني 1973 ، ص 450 - 452 .